شوقي او الشاعر

لمؤسسه سامي الجريديني

نزل الهلالُ عن السماء فليتها طويت وعمَّ العالمين ظلام

وقد يُؤدي القدرُ بالهلال فتزول معالمه وتضيع آثار مادته فينا ويبدلنا الله اقماراً خيراً منهُ او نكتفي بالشمس . وأما هلالنا الروحي الذي ودّع العالم بالأمس فلن يزال من سمائه ما دام في كتب الادب اثر لغة العرب

ولقد طالما جال في الخاطر عند ما كان يدور البحث بين الادباء على الشعر العربي وعلى شاعرية شوقي وغيره ان نبدي رأينا في الشعر وفي منزلة شوقي منهُ ثم نحجم خوف التهمة لاننا نرى ان الكتابة في مثل هذا الموضوع يجب ان تسمو عن الشخصيات . ان تكن خدمة للادب العربي خالصة لوجه الله

* * *

ليس لاحد من الناس ان يُسمّي شاعراً الاّ اذا كان نابغة شعر . وقد قلنا نابغة شعر قاصدين — فالناس قد جعلوا الشعر مبتذلاً . منهم لشر ما ينظمون . ومعظمهم لشره ما يقدرون ولفضيحة ما يطلقون من الالقاب على الناظمين . قلنا نابغة شعر ولولا ما قدمنا لكان حتماً علينا ان نقول «الشاعر» وكفى . لأن كل شاعر نابغة ولا يعكس واذا قلنا الشاعر فقد قلنا شيئاً كثيراً

فهل كان شوقي شاعراً . وهل كان نابغة ؟ وما هو الشعر والشاعر ؟ وما هو النبوغ ؟ ان استطعنا ان نقرب فهم هاتين الكلمتين الى الاذهان فقد عرّفنا الشعر وعرفنا مكانة شوقي منهُ

* * *

ليس الشعر كلاماً مقفى موزوناً . ان هو الاّ وحيٌ يوحى يهبط على الشاعر فاذا به صاحب رسالة يؤديها . يغنيها بالعربية مرة وبالاعجمية اخرى على وزن وقافية هنا وعلى غير هذا الوزن وعلى غير هذه القافية هناك . أرأيت الى هذا المصوّر يخطىء في الاوضاع التشريحية لاعضاء الوجه او يضيع النسبة بينها . ان فعل ذلك فليس هو من التصوير في شيء وكان شأنهُ شأن كل الاطفال يعبثون بالقلم والورق . ولكنهُ ان اكتفى بالقواعد التشريحية وبالاوضاع

الطبيعية للاعضاء لما زادت قيمته عني وعنك ايها القارىء الكريم ان كنت مثلي لا تكاد تحسن رسم خط مستقيم

لا ليس المصور مقلداً اذا هو اهمل الاصول وضرب بالقواعد عرض الحائط . وليس هو بالعبقري ان قال هذا حسبي

يجب ان يسبغ على القواعد والاصول روحاً تعطي العيون الحائطاً تعبر في الصورة عما في ضميره . ويلبس الوجه معنىً ليس في الاصول والقواعد بل في نفسه وفي نفسه هو دون سواه . فيبرز لنا الجمال ، نعجب به ونحبه من بسائط الاشياء التي في متناول ايدينا ولكنا لا نستطيع ان نحاكيه — كذلك الشاعر . وعند ما قلنا ان الشعر ليس بالكلام المقفى الموزون لم نقصد الى الاباحية في اللغة او التهرض في قواعدها ولم نرم الى فتح الباب على مصراعيه يدخله كل ناظم لا يملك من حطام الادب الا كلاماً مرصوصاً موزوناً ذا قوافٍ يضرب باللغة وقواعدها واصول الكتابة فيها عرض الحائط ، يستر جهله وتفسخ الجرائد غفلته بدعوى «الشعر العصري» او «الادب الجديد» وما الى ذلك من سقط المتاع

لا . ان لم يكن الشاعر متبحراً في اللغة متضلعاً من القواعد فليس بشاعر . ان لم تكن لغته اللغة الفصحى فليس بشاعر . ولكنه ليس بالشاعر ايضاً ان اكتفى بالقواعد والاصول لغة وبياناً وبديعاً — لا . لن يكون من «الشاعرة» في شيء ان قال هذا حسبي . فهذه كلها ثوب واعضاء جسم عار . أما الروح التي تنفخ في الجسد الحياة فتجعل الرجل يتألم ويحزن ويفرح ويفتخر ويطرب ويغني فهذه هي روح الشاعر . وهذه الروح مخلوقة فيه توحي اليه ان غنِّ فيغني مدفوعاً بسليقته مسوقاً بطبيعته يكمن من فطرتها بالدرس ويهذب من بداوتها بالملاحظة. فانهُ ان كان «مدفوعاً الى السقم السقيم» ومضطرّاً الى ركوب الاسنّة الخاطرُ فمطور على الشعر الشاعر يضرب على قيثارته لانهُ مقدّر له ان ينشد ويقول الشعر لانهُ محتم عليهِ ان يقوله

قرأت من زمن ليس بالقصير مقالاً لأديب ينعى فيهِ على العصر الحالي خلوّه من الشعراء المبرزين وينسب الامر الى طغيان الروح المادية والى تفوق العلوم التحليلية على الخيال والعواطف. وهذا رأي قال بهِ كتّاب كثيرون فيما مضى ثم عاد زعيمهم — وهو افرنجي — فأنكره وأقرّ بخطأه . فلا شك ان العلم الطبيعي تقدم كثيراً ولا يزال يسرع في تقدمه ولا شك ان الروح المادية قد قويت وصُعّت واشتد سلطانها فهل في هذا مساس بالشعر ؟ وهل من علاقة بين هذا الامر وذاك ؟

السعي وراء الماديات والاستمتاع بما يفدقه توفر الامور المادية على الناس كان منذ الازل وسيبقى الى الابد . ولكن صورتهُ تختلف ومبلغهُ يتغير وشكله يتحول ويتبدل فلا يبقى على حال واحدة . والعلم الطبيعي الآن مثل «العلوم» التي تقدمته من كلامية وفقهية ولغوية

وفلسفية يمشي في طريق ويمشي الشعر في طريق آخر. فليس لهذا سلطان على ذاك وليست مملكة العلم والمادة مما يضفى على مملكة الشعر والفن. فالانسان في تاريخه ليس خاضعاً لاحكام العقل والمنطق او للعلوم الطبيعية التي ترينا ان الواحد والواحد اثنان بل يخضع لعواطفه ايضاً

فكل منا رجلان او لكل رجل صفتان واحدة تريه ما وصل اليه العلم الطبيعي من الاستكشاف والتفنن في تذليل القوى المحيطة به فتهيء له كل اسباب راحته المادية، وواحدة تقف حائرة مذهولة تسأل قائلة وما بعد هذا ؟ وهل في هذا راحتي ؟ بل تأبى مكرهة ان تقنع بما هو تحت نظرها وتمدُّ خيالها الى ما وراء الطبيعة فتخلق لنفسها ما تشاء. ذلك ان اشباع الروح شيء واشباع الجسد شيء آخر. وذلك ان في كيان البشرية تشوقاً الى الراحة النفسية وتعطشاً الى الجمال لم يجدد في العلوم الطبيعية حتى الآن فحاول ان يخلقهُ من العاطفة ومن هتاف الوجدان الداخلي. ذاك مسرح تلعب فيه العلوم الطبيعية ادوارها وهذا مسرح يغني فيه الفن ادواره، ولن يلتقي هذا بذاك

الشاعر يوقظ فينا كل مافي النفس من آمال ومن شعور والعالم يرسم لنا قواعد ما يقع تحت الحواس الشاعر يوقد فينا جذوة التصور فيثير عواطفنا بكلامه كما يوقدها ويثيرها المصور بريشته والوانه

فالقول اذاً بان العصر العلمي او المادي يقف في سبيل الفن قول لا يستند الى الحقيقة وليس له ما يسوّغه من ماض او حاضر. فالمادة كانت قد طغت منذ ونيف الف سنة وكانت « علوم » ذلك العصر قوية اخذ بها الناس ودرسوها فلم تمنع تلك المادة ذلك العصر ان يخرج لنا المتنبي ونبوغه في فنه — كما ان هذا العصر لم يستطع بمادته وعلمه ان يحول بيننا وبين شوقي ونبوغه في فنه

ليست غاية الشاعر ان يحلّل ويضع المقدمات يتبعها بالنتائج انما غايتهُ ان يخلق لنا صورةً تامةً تتمثّل لنا بشراً سويًّا مرةً وعاطفةً مرةً اخرى واملاً ومطمحاً مرات شديدة

ليس الشاعر بالكيماوي او بالعالم التجريبي او التحليلي وليس بالمنطقي. انما هو مصور ينقل لنا بالكلام ما يضعهُ المصور في اللوح بالالوان. بل هو ابلغ منهُ اذ تكفي جملة واحدة يقولها حتى تثير في انفسنا صورة ذهنية قد لا تكون مشابهة للحقيقة ولكنها تؤدي المعنى الذي رمى اليه الشاعر

خذ امرؤ القيس يصور لنا الليل فيقول

وليل كموج البحر أرخى سدوله عليَّ بانواع الهموم ليبتلي
فقلتُ له لما تمطّى بصلبهِ وأردف اعجازاً ونـاء بكلكل

فلو أراد الملبسون أو العالم التحليلي ان يشرح الصورة شرحاً تحليليًّا لقال ان ليل امرىء القيس غريب فهو يبدأ موجاً وهذا الموج كالستور المرخيّة ثم ينتهي فرساً يتمطط وتزداد مآخيرهُ امتداداً ويبعد صدرهُ. ولا أرى امرؤ القيس الا غبيًّا. واما كافة الناس فيقرأون

البخيل فنبدو لنا من خلال هذه الالفاظ صورة لبخيل بهيم مخيف مخوف . وهذا كل ما أراده الشاعر

وهذا ما فعله معظم شعراء العالم مثلاً

من أراد مستدرك في الكتابة ان يصف لنا البخيل يكتب في البخل وفعله واسبابه ونتائجه وتأثيره في الناس وفي البخيل نفسه كتابة لا تدع زيادة لمستزيد في كل مقومات البخل وفي كل آثاره في المجتمع الانساني ولكنه لا يعطينا صورة البخيل

واما شكسبير فينطق « شيلوك » ويجعله يفكر ويطلب ويغضب ويرجو فاذا بالبخيل قد تمثل لنا انساناً . وانطق « اوتللو » بالحب وبالحرب فتجسدت لنا الغيرة . وهكذا يخلق لنا ناساً يتكلمون ويفكرون ويأكلون ويشربون فتتمثل لنا صور الخديعة والعقوق والتردد والتضحية والمكر فلا نميز الصورة عن الاسم الذي سمّى شكسبير رجلهُ به

ولكنه لم يعد لغير شكسبير ان يكون عالمياً لان الصور التي رسمها لنا هي هي في كل زمان وفي كل بلد وفي كل قوم . فالحسد والغيرة والبغض والعقوق لا تتغير معها تتغير في ابن آدم ومعها تغير في الانام ومعها تغير في الزمن

أما الشعراء الآخرون — ومنهم شوقي — فاكتفوا بصور أخرى، بصور هي آمال الشعوب التي يطقون باسمها وعواطفهم متمثلة في احزانهم وآلامهم وافراحهم ومفاخرهم فكانوا في عداد المبهمين والنبوغ والعبقرية ما هما ؟ النابغة في عرفنا رجل يظهر في عصر من العصور وكأنهُ تمثل ماضيهُ كله وضمه في نفسه وصوّر جيلهُ الحاضر جامعاً ضمير قومه كلهم في جسد واحد وقلب واحد . فهو انسان الشعر على ارقى درجاته يرى كلُّ فرد آماله وشعوره وعواطفه متجلية فيه فينظر كما في مرآة إلى أعماق نفسه فيراها كما هي . فان حاول هو ابراز الصورة لا يستطيع فيفقد إلى المعبر عنها ويستسلم له . ويسمو النابغة عن المستوى العادي ولكنه في الواقع ونفس الامر مثال لكل ما في هذا المستوى من محاولة إلى التطلع إلى فوق والسير إلى الامام . فهل كان شوقي هذا الرجل ؟

تعال معي أيها القارىء الكريم اريكهُ

ليس الاسلام ديناً فحسب بل ملكاً ضخماً وامبراطورية مترامية الاطراف لا تغرب الشمس عنها سلطان قام — مثل كل سلطان — بالسيف وبالسياسة وبكفاءة اعلام بارزين

فاذا كان الروماني في ايام الامبراطورية الرومانية يكتفي في حلبة الفخر بقوله انا روماني فيجمع في نفسه كل عظمة الامبراطورية ، كذلك يحق لكل مسلم وامبراطوريتهُ في أوجها ان يفخر بالاسلام ويزدهي وينشد في حب الاسلام

وما كان شوقي بالشاعر النابغة لو انه — وهو مسلم — انساهُ وحيهُ مثل هذا الفخر والحب والاخلاص في خدمة الاسلام

ما كان يجدر بنا ان نعدّه في النوابغ لو لم يتجسد في قوله كلُّ ما في ماضي الاسلام من عزّ دنيوي ولو لم يتمثل الاسلام فيرث تراث الاجداد وينتظر — وهو في الثلاثين والاربعين من عمره — دولة الاسلام لا تزال في سطوة لا بأس بها تهاجمها دول اوربا من اليمين ومن اليسار فتصمد لهم تارة بالسيف واخرى بالسياسة حتى كانت الحرب مع اليونان وفوزها الباهر عليهم فيجمع روح الملايين من المسلمين في قصيدته « بسيفك يعلو الحقُّ والحق اغلب » يخاطب امير المؤمنين

إتضح تعريفنا النابغة انه هو الذي يعبر عن شعور قومه فينشد لفظاً ما يخالج اعماق نفوسهم فكراً فهو هو النابغة إذ يتغنى ببطش الترك وقوة الترك وتضحية الترك في سبيل نصر الاسلام

فاذا عاب عليه بعضهم قوله « وارمينيا تكلى وحوران اشيب » لانه لا يليق بامبراطورية عظيمة ان تقتل من رعاياها وتكسر من كبرياء ابنائها كان على خطإ مبين فشوقي لم ينطق بلسان الرجل تملك عليه مشاعرهُ التقوى والمحبة وفعل الخير » بل نطق بلسان امبراطورية تأبى ان يهاجمها العدو من الخارج ومن الداخل . فاذا ما جاءت حرب البلقان وخيل إلى الناس ان الاسلام قد زال عن البلقان تجلّت عبقريتهُ فعبر مرة أخرى عن ضمير الاسلام اذ صاح « يا أخت اندلس عليك سلام » بل يقف والرأي العام الاسلامي على لسانه يقلق القول لسبط نبي المسلمين شريف مكة اذ اضطهد حجاج البيت وأساء اليهم ويستعدي صهر أمير المؤمنين في استانبول ويقول لهُ « ادّبهُ ادّب ... الشريف عليها أم لك العلمُ ». وهو النابغة ايضاً اذ يأخذ مثل قومه الاعلى فيصيغهُ حكمةً قد لا تكون في ضمير كل احد منهم ولكنها ضمير الاسلام الحق فيذكر المسيحية ويقول فيها وفي سيدها ما لم يؤت باحسن منهُ الاّ في القرآن

وكانت الحرب العظمى وتخلّي الاتراك عن الخلافة ودارت الايام بين الناس وطغى على العالم كله روح الوطنية فانكمش شوقي ثم عاد نابغةً آخر يعبر عن عواطف قومه ومطمحهم ومثلهم الاعلى بشعر يتغنى فيه بالوطنية فيعود إلى مصر ينقب عن ماضيها فيحييه وينشر حاضرها

« وطني ان شغلت بالخلد عنه نازعتني اليه في الخلد نفسي »

ودع عنك التمسك بالتقديم والتأخير في تاريخ شعره فنحن نصوره صورةً مستقلة عن الوقت . كما اننا نصوره كما هو فوق الاحزاب وفي معزل عنها لانه ملك الجميع فلا ينطقه الله الاّ بما يصح ان يقولهُ الجميع

بل كيف لا يكون النابغة الذي عرّفنا وهو ان طربنا غنينا بشعره أو فرحنا انشدنا شعره أو رثينا رجعنا الى شعره أو افتخرنا زهونا بشعره أو ارتنا الحكمة تتخذها مثلاً سائراً استشهدنا بشعره

« رواة قصايدي فاعجب لشعر بكل محلة يرويه خلق »

فاذ كان هذا الذي تغلغل في حياتنا الادبية إلى اعماقها والتصق بكل عواطفنا وجوارحنا

وكان سخيفاً مفروضاً مطلق الرأي من لدنا امام الاهة الشعر — إذا كان هذا ليس بالشاعر السابغة فاين هو ذلك الشاعر ؟

***

ان الخطأ الذي وقع فيه الذين وزنوا شوقي بالميزان فوجدوه ناقصاً لا يختلف عن ينصب نفسه حكماً ناقداً لشعراء ذلك العهد لم ينظروا اليه كشاعر عربي فقاسوه بمقياس البيئة العربية قديمها وحديثها او بمعيار الشعر العربي ما هو جديد منه وما طال عليه القديم بل تأثروا بالنقد الافرنجي للشعر الافرنجي فاخذوا نظر الافرنج الى شعرائهم وطبقوا مذاهبهم على شوقي

وليس هذا من العدل في شيء

فالشعر الافرنجي شيء والشعر العربي شيء آخر . الادب العربي شيء والادب الانجليزي شيء آخر والادب الالماني آخر وهكذا . فثمة رجل ذو ملامح واخلاق وتاريخ ولغة تجعلنا ندعوه انجليزيا . وثمة رجل مثله ولكنه ذو ملامح واخلاق ولغة وتاريخ آخرين ندعوه افرنسيا كذلك ثمة رجل آخر مثلهم ذو تاريخ ولغة واخلاق تجعلنا عربيا . فلا يصح قياس هذا بذاك . ولا اخذ قاعدة ما عند ذاك لتطبيقها على ما عند هذا . إذا أردنا ان نحكم حكماً صحيحاً على شوقي فالواجب ان نأخذه شاعراً عربياً والشاعر العربي ليس بشاعر ان لم يؤثر فيه تاريخه ولغته وبيئته . فما له وللاوساط الاخرى واللغات الاخرى التي تنتج شاعراً ليس بينه وبين شاعرنا مشابهة

انه أعطى للفرنسيين — لفلبين لا يكادون يعدون على اصابع اليد الواحدة — ان يكونوا شعراء عالميين ونحن لا نعرف الا شكسبيراً شاعراً عالمياً وأما نوابغ الشعر الآخرون فمحليون. فكم من شاعر مثل الانجليزي لا يعرف الافرنسيون عنه شيئاً ولو نقل الى لغتهم لما استساغوه ولكنه شاعر في نظر الانجليز يعبر عن ضمير امتهم وينطق بشعورها وآمالها ومطامعها

كذلك شوقي . فاننا عند ما نقيم انفسنا مقام الحكم الذي ترضى حكومته كان حتماً علينا ان نرى هل قال بلسان قومه وهل ترجم آمالهم وشعورهم وهل احزنهم إذا رثى وأطربهم إذا طرب وساق شعره مثلاً إذا نطق . هذا هو المحك للحكم على شاعر في كل آن وفي كل زمان

انه من الضلال ان نطمع في جعل شوقي شاعراً عالمياً فليس هو كذلك ولكنه شاعر العربية وشاعر الاسلام وكفى بذلك مقاماً يجعلهُ في المقام الاول بين الشعراء وسيّان عندنا بعد ذلك وافق الحكم قاعدة نقد الشعر الافرنجي أم لم يوافق

ولسنا من الذين ينسبون الادب إلى قديم أو تقليدي وجديد أو محدث حتى نحكم على شوقي لا . اننا لا نؤمن بهذا المذهب فلنفسر ما نرمي اليه

انه إذا قام فينا رجل اليوم وأخذ في الشعر مذهباً كمذهب الشعراء منذ ونيف خمسة

قرون فليس بشاعر أو مذهبهم في صدر الاسلام فليس بشاعر أو مذهبهم في الجاهلية فليس بشاعر . ذلك لانه ليث ابن ذلك الزمن ولسي حاضر عصره وما فيه من اختلاف في الشعور والعواطف والآمال والمرامي عن العصور الاولى . انه لم يرق فيتكيف بالاحوال والمحيط فلا يستطيع ان يكون لسان جيله وترجمان بيئته فلا يتسنى له ان يكون شاعراً وان كان في عداد كبار الناظمين

وكذلك لو قام فينا اليوم رجل ينظم الشعر ناسياً ان هناك في صميم العربية شعراء دعوهم جاهليين ودعوهم اسلاميين وان هناك شعراء نظموا منذ الف سنة ومنذ خمسمائة سنة وانه غير مقيد بشيء من تقاليدهم واساليبهم وتاريخهم فليس بشاعر

فالشعر — مثل كل الفنون الجميلة ومثل كل شيء في الطبيعة — ذو اصول تمتد إلى ابعد ما لشاعر من نسب فاذا انكرها لم يعد ابناً لها

والشاعر العربي اليوم ليس الا ابناً يرث ما سرى في دم اجداده منذ اول يوم أُطلق فيه بالشعر حتى الآن . فاذا لم يتمثل هذا الميراث ويضمه إلى بيئته الحاضرة ويمزجه بعصره الحاضر فليس بأهل ان ينطق بلسانهم ويترجم عن آمالهم

وما الادب في كل قوم وفي كل بلد الا تاريخ اول اديب منذ بدء الادب الى يومنا هذا

اترأيت الى مدرسة انكليزية لا يبدأون في درس الادب فيها منذ ايام «تشوسر» نازلين الى «سبنسر» «شكسبير» «ملتون» «تنسون» حتى الآن

أم رأيت مدرسة افرنسية لا يرجعون بك فيها الى ايام انقسام الشعراء فئتين مختلفتين ويتدرجون خطوة خطوة حتى هذه الايام . ام رأيت اخرى عربية لا يبدأون في تدريس الادب فيها منذ اوائل الجاهلية وشعراء النصرانية حتى الآن ؟ فالماضي جزء لا ينفصل عنا وانما للحاضر خلق يميزه عن ذلك الماضي ولكنه لا ينفصل عنهُ . فالشاعر الخليق بالاسم هو من جمع الماضي كله مختبراً في دمه ونطق بكل ما في حاضره من عواطف وتصورات. ولا اظن منصفاً يرى في شوقي غير هذا الشاعر

كذلك اخطأ الذين اخذوا بيتاً لشوقي من هنا وآخر من هناك فقالوا لك انهُ قصر في هذا عن المتنبي وأخذ المعنى عنهُ ولم يبلغ شأو البحتري في ذاك التركيب والتوى عليه القصد وانهُ في هذا البيت خالف المألوف فبالغ وانهُ في ذاك خرج على المنطق وعلى اللغة فلم يوفق

وما هكذا يكون النقد . واني ازعم ان النابغة لا يكون خليقاً بهذا الاسم اذ لم يخالف المألوف ويضرب في بعض الاحايين بالاصول اللغوية عرض الحائط مبالغة في تأدية المعنى او اسعافاً في اتقان الصورة التي يثيرها لفظه في ذهنك . وليس النابغة الا رجلاً ارتفع عن المستوى ولكنه ليس بكامل — ومن آيات فنه انهُ يخطىء ولكن خطأه في قوله يزيد القول حسناً

ويزيدك به اعجاباً وله محبة لخفة روحه وسلامة ذوقه

وانهم يقولون لك في كتب الادب الانكليزي انهُ لم يخالف القواعد اللغوية عظيمٌ مخالفة شكسبير لها . ولكنهُ مات فترك لغته اغنى اللغات تراثاً وزاد في معجمها الالوف من الالفاظ ووضع شعرها في اعلى الطبقات

بل نبالغ نحن الآخرين ونقول انهُ اذا لم يخطىء الرجل النقد فليس بحبيب الى قلبك واذا كان كله كمالاً في كمال حيل بينك وبين جاذبيته وبقي جافاً تيبس عروقه وتذهب في الهواء

ولا غلوَّ القول وتكراره فالنبوغ في الانسان هو الكفاءة لتمثيل جيله وعصره وترجمة ما عبرنا عنهُ بضميرها . فاذا فعل ذلك فهو الزعيم المقدم مهما اخطأ ومهما ما يغتفر لهُ موته جميع هفواته . افلا ترى ان النوابغ لا تذكر لهم السيئات مهما تمددت فخلدوا وان رجال الكمال اللفظي او الكمال الجسدي جلسوا على الرف فعلاهم الصدأ وأكلهم العث . ذلك ان الروح يحيي اما الجسد فيبلى . وانا نقرر في غير وجل انهُ ما اثمر ادبنا العربي شيء مثل خلوه من النقد الحقيقي . ذلك النقد الذي يتناول الروح والمعنى والصورة الجلية والاذواق ويهمل القشور . فانظر ان التاريخ العربي في الادب انما سجل آهل بعظماء الاشخاص لو كانوا افرنجياً لرأيت المجلدات تكتب عن كل واحد منهم . بل انظر الى تاريخ الاسلام السياسي فلن تجد في اي امة اعجمية ما تراه فيه من كثرة الفحول المبرزين

فكم من كتاب تقرأه في اللغات الافرنجية عن نابليون وعن شارلمان وعن ولنتون وعن شكسبير وعن جوته وعن فولتير وهكذا الى ما لا نهاية له

ولكنك ماذا تقرأ في العربية عن عمر ابن ابي ربيعة وعن الاخطل وعن ابي نواس وعن المتنبي وعن خالد ابن الوليد وعن معاوية وعن الحجاج وعن زياد ابن ابيه وعن ابي مسلم وعن صقر قريش : ذلك اننا عندنا المادة وانما ينقصنا الروح

فينا الكثير من امثال غليوم الثاني وبيرون وفوشه ولكن ليس فينا « نيكلسون » و« ستراشي » و « اندره موروى » و « امبل لودفيج » و « ستيفان زفايك »

***

شيء آخر يتناوله النقاد أو الذين يترجمون أديباً شاعراً كان أم كاتباً فيقولون لك هذا مبتكر وهذا ينقصه الابتكار وذاك أخذ المعنى عن ذلك الشاعر أو قاد فيه هذا الكاتب

ان صغار المخلوقات في الادب تنسب إلى نفسها شيئاً اقتبسته من الغير أو تقلد وتنقل وتدعي الالهام

هذا فريق لا يليق ذكره أو الاهتمام بامره فليس هو من الادب في شيء

ولكننا نعني شعراءنا وكتابنا الذين ثبتوا على الزمن فاصبحنا وهم قادة الادب فينا

ترى هل الابتكار من مزاياهم وهل في الادب الحقيقي ابتكار — ليست دولة الادب من مملكة العلوم الطبيعية . فالاختراع والاكتشاف ملازمان العلم التجريبي او التحليلي لا ينفصلان عنهُ لانهُ شيئي . اما الادب نفسي واحكام النفس معلقة بشاعرها اما كفرد وكأمة

وما نفسية شعب من الشعوب الا هذه الصورة التي يرسمها لنا الشاعر اما خُلقاً او املاً او حبًّا او حزناً وما هذه النفسية الا نفسيته هو ضمَّ فيها نفسية جيلهِ فصفَّاها واختصرها وهذبها وارسلها قولاً مأثوراً

لذلك كان الابتكار في الادب معدوماً . فالادب عن قدماء اليونان يكاد يكون هو الادب عند الاوربيين الآن مع هذا الاختلاف البيّن في اللغات وفي طرق التعبير . الروايات التمثيلية التي تملأ الادب الاوربي مستمدة من الروايات اليونانية مع غيّر القوم من لغة ومعها بدّلوا في اشخاص. لان الروح الادبية تكاد تكون واحدة — أما الاسلوب فلا يعدّ ولا يحصى

فالاديب الاوربي المتغذي بكل هذا الماضي من الادب لا يمكنهُ ان يتجرد عنهُ ويبتكر. وماذا يبتكر ؟ انهُ يغير في الاسلوب وفي بيان اللغة ولكن روح الادب الاصلي هو هو

فاذا كان الادب العربي ميراثاً لكل ناطق بالضاد فكيف يكون الاديب اليوم اديباً ان لم يتناول ميراثه فيستغلهُ . وهل يجدر بشاعرنا اليوم ان يتجرد عن كل الشعر العربي منذ فجر العربية حتى الآن ويتملص مما خالط قلبه وعقله من مادة تلقاها عنهُ وينطق او يفكر او يشعر بغير ما آل اليهِ

لا . انهُ ان فعل فليس بشاعر عربي

وأديبنا اليوم هو اديبنا البارحة انما تمشّى مع هذا العصر وتكيّف وتحوّل وبقي الاصل كما هو . فالقول عن نقد الشعر بان شوقي أخذ هذا المعنى عن شاعر قديم حيث قال هذا كذا وقال ذاك كذا فقول لا يؤيده تاريخ الادب في كل الامم وليس نقداً بالمعنى المعروف

* * *

ولقد عرّجنا على الكثير والقليل من مواطن القول ولم نتمّ صورة شوقي بعد

قلنا ان النابغة في عرفنا بشر يسمو عن المستوى العادي ولكنهُ ليس الهاً تساق اليهِ الصلوات والمدائح وينزّه عن الخطإ

فاذا احببنا ان نشبههُ بشيء فلنعلهُ بآلهة اليونان اشبه — آلهة نسبوا اليها اشياء عظيمة ولكنهم جعلوا في طبيعتها خُلقاً بشريًّا ضعيفاً فكانت تعلو عن الناس في شيء وتسفل اليهم في شيء آخر، فجعلوا لها محبة البشر وحسدهم وجميع ما فيهم من ميول ليست مجردة عن الهوى في معظم الاحيان . وشوقي — في نظرنا — لا يكون النابغة الذي نحاول ان نصف ان لم يحمل نقصاً يشاركهُ فيهِ الكثيرون من الناس ولكنهم لا يشاركونهُ كل شيء آخر

ذلك تعلقهُ بالسلطان — نعني «الوظيفة»

فقد كانت امنية شوقي منذ ما تلمذ ان يكون في ركاب الحاكم — امنية تشفع لهُ فيها شرقيته التي لا يهنأ لها عيش الا في ظل «الحكومة» ويشفع لهُ فيها نسبه وقد كان يمتُّ الى اصول هبطت مصر حاكمة او في معية الحاكمين. ولكنها امنيٌ لا تليق بعبقريته وحالة لا يطيقها النوع انما ينهض الشاعر فوق العروش وعلى ظهور الحاكمين وتأبى لهُ تفعماً ولو كان من الذهب الابريز

انا نعجب بشوقي ونأخذنا هزة الفخر والطرب عندما نتلو آياته يعتز بالاسلام ولكننا تعافه انفسنا اذ يأتمُّ «بعبد الحميد الثاني» ويضربهُ لنا مثلاً ومعياراً لعظمة الخلافة ونغض الطرف خجلاً اذ يشتي بتابين ذلك الخليفة «عباس الثاني» فيقيمه ثانياً في المجد والكرامة

ليست القصور ولا دور الحكم بالمرتع الخصب لعبقرية الشاعر. انهُ طير النيل ولسان العربية وروح الاسلام. فالفضاء والحرية به خليقان

وإذا فهمنا المتنبي مخلد سيف الدولة فذلك لانه كان يمثل في تلك العصور كلها كانوا يعظمونهُ في الرجل من بطولة وكرم وحسب وتدبير بشعر. أما وحال ابطال شوقي غير حال سيف الدولة فاي عذر لهُ

إننا نستقل فيه ما كان يصبو اليهِ من لقب «شاعر الامير» ونغتفرها له إذ يقول شاكياً لذلك الامير:

«أليس من العز الممنع ان ترى أمير القوافي في رحابك جانيا»

وتنضل عليهِ الاخطل وايامه غير ايام شوقي وبطش بني أمية غير بطش عباس الثاني إذ تلعب برأسهِ نشوة الخمر فتأخذهُ العزة بالاثم ويقول

إذا ما نديمي علني ثمَّ علني ثلاث زجاجات لهنَّ هديرُ
خرجتُ اجرُّ الذيل تيهاً كأنني عليك أمير المؤمنين أمير

ولكنها هفوة وقع فيها قبله غير واحد من النوابغ ثم جعلوا القاعدة مثالاً يصح ان يحتذى وما اغتفرت لهم الا لما أولوهُ للامم التي نطقوا بلسانها من فضل يثبت على الدهور

***

وكانت الحرب العظمى فتنى شوقي واعتزل الاهل والوطن وأبت العناية البارة بابنائها العبقريين الا ان تكون في خدمتهِ. فليس للرجال العظام من مطهر وحافز وملهم مثل العزلة. وما أدى نبي رسالته قبل ان يعتزل الناس زمناً — فكأن الوحدة وفحته الى مستوى نفسه فجلى بناجيها ويستوحيها خير ما نظم. فعاد الينا بعد الاعتزال وقد تجرَّد لتصوير الجمال النفسي فقال في الاندلس العربية وفي فراعنة مصر وفي جبال لبنان وأودية الشام ما يجعله في عداد الخالدين

وكأنه شعر بدنو ساعة الرحيل وخاطبته الأمة الشعر قائلة انت ابني الحبيب وبك قد سررت فأنم لي فرحي . انهم ينعون على الادب العربي خلوه من الشعر التمثيلي وان شاعره يلتزم وزناً واحداً في قافية واحدة في قصيدة واحدة فلا يلبث ان يتشكى قريحته عربي فيسقط وما هكذا ادب الافرنج

ثم ارى انك النابغة الحق تقمصت روح عصره فيه فرأى من حوله ميدان التمثيل قد رحب بعد ضيق واتسعت مسارحه لنثير الروايات الافرنجية تُنقل ولايحسن نقلها او تمثيلها فنهض واذا به يضيف الى الادب العربي سفراً من ابلغ اسفاره . وعندنا ان هذا الضرب من الشعر قد فتح ابواب الادب العالمي لابناء العرب على مصاريعه

فاليونان والرومان وابناؤهم اوربيو اليوم ما بلغوا الذروة في الادب الا من هذا الباب — حسب شوقي انه مهّد الطريق وانارها وعسى ان يلهم الله من يرى هذا النور فيتمّ ما بدأ به شاعرنا العظيم

فمجال الشاعرية بل مجال الادب الخلق بالاسم هو هنا . فالصور متوفرة وما على الفنان الا ان يبرزها أما خلقاً — وما اكثر صور الاخلاق — أو حكمةً أو عاطفةً أو غير ذلك مما يثير المشاعر

* * *

على اننا نعترف باننا لم نقرأ كل روايات شوقي التمثيلية وان نقد مثل هذا الفن يقتضي وقتاً طويلاً للتمحيص والموازنة حتى تعرف منزلة شوقي منه

ولكنه — كما قدمنا — يكفيه انه دلنا على الطريق وقادنا إلى حيث يشبع الاقدام ويكره الاحجام فمثل شوقي لا يُبكى — فانهُ فينا وسنا مهما بقينا . انهُ منار يهدي واستاذ يرشد — موضع فخر الانفس ومحط آمال العواطف

سلام عليهِ يوم عاش فينا شاعراً وسلام عليهِ يوم هو في الخالدين شاعر